١ ـ أبو تمام

وموازنة السرقات الشعرية عند ابن الأثير

للأستاذ دريني خشبة

رأينا أن أبا تمام لم يشتغل طول حياته بغير الشعر تأليفاً وتصنيفاً ، ورأينا كيف كان يختار مرة المشهورين ثم يختار أخرى لغير المشهورين ، فيحكم ذوقه النقاد في الحالين ، فلا يقدم إلينا إلا كل درة وكل غرة من درر الشعر العربي وغرره ... ولم يكن أبو تمام مصنفاً ومؤلفاً فحسب ، بل كان حافظاً ، بل كان أعجوبة في الحفاظ الذين اشتهر بهم تاريخ الفكر العربي ... ورأينا اتفاق آراء خصومه وأصدقائه على أنه كان يأخذ المعنى ، فيمضي بتخميره — على رأي الآمدي — أو بالاتكاء فيه على نفسه — على رأي الصولي — حتى يخلص له آخر الأمر ، أو لا يخلص له ، بل يشوهه وينقص منه ، كما صرح بذلك دعبل وابن الأعرابي والتوّجي وأبو هفّان وأبو حاتم السجستاني وغيرهم من أعداء أبي تمام ...

وقبل أن نأخذ في عرض طائفة من سرقات أبي تمام ، مما

وعندما يصبح السياسيون من قادة الفكر ستتحدد العلاقة بينهم وبين بيئاتهم . فللرجل المفكر في وسطه مهمتان : أولاهما أن يبصر قومه بحالتهم الحقيقية ، حتى يعوا ما هم فيه من شقاء وتخلف ، وذوو النظر مجمعون على أن البؤس ذاته لا يحرك الشعوب ، وإنما يحركها أن تفطن إلى ما هي فيه من بؤس . ولعل في حالة الفلاح المصري أوضح دليل على ما نقول ، ومهمته الثانية هي أن يسبق الأمم إلى آمالها الغامضة ، ومن هنا ترى أغلبية الكتاب المفكرين من الداعين إلى الأفكار المتقدمة ، فهم رسل الرجاء وبألسنتهم تشكو النفوس آمالها وتتطلع إلى سعادة أتم . وهذا هو السر في أنهم يعيشون دائماً في كفاح مع بيئاتهم وكثير منهم لا يستجاب لندائه إلا بعد موته بسنين ؛ فعندئذ يُقر لهم بالفضل وتقام لهم النصب وتنزل آراؤهم من القلوب منزلة الإيمان

محمد عشماوي

استدركه عليه الآمدي ، لا نرى بداً من وضع خلاصة لذلك الفصل القيم الذي ختم به الأستاذ العلامة أبو الفتح بن الأثير كتابه (المثل السائر ، في أدب الكاتب والشاعر[1]) والذي خصصه للسرقات الشعرية ، ولا سيما عند أبي تمام والبحتري ، وابن الرومي والمتنبي ، وهو فصل من أبرع الفصول في بابه ، وأكثرها إحاطة بهذا الموضوع الذي تشعبت أطرافه ، وكثر فيه إرجاف الرواة والنقاد . ومن الطريف أن ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ كان قد ألف في ذلك الموضوع كتاباً قائماً بذاته ، ثم ضاع هذا الكتاب ، فعوضنا منه بذلك الفصل خيراً

١ — فعند ابن الأثير أن الشاعر إذا أورد شيئاً من ألفاظ شاعر آخر ، في معنى من معاني هذا الشاعر ، ولو كان ذلك لفظة واحدة ، فإن ذلك يكون دليلاً قاطعاً على سرقته

٢ — ويقسم السرقات الشعرية إلى خمسة أقسام : هي النسخ ، والسلخ ، والمسخ ، وأخذ المعنى مع الزيادة عليه ، ثم عكس المعنى إلى ضده

٣ — أما النسخ ، فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته ، من غير زيادة أو نقصان ؛ وأما السلخ فهو أخذ بعض المعنى ؛ وأما المسخ فهو إحالة المعنى إلى ما دونه

٤ — ويعود ابن الأثير فيجعل النسخ على ضربين : فإما أخذاً كاملاً كما تقدم ، وإما أخذ معظم اللفظ والمعنى كله ، كقول أبي نواس :

دارت على فتية ذل الزمان لهم ... فما يصيبهمو إلا بما شاءوا

فقد نسخه من بيت في أصوات معبد ، وذكره أبو الفرج :

لهفي على فتية ذل الزمان لهم ... فما أصابهمو إلا بما شاءوا

ومثل قول أبي تمام :

محاسن أصناف المغنين جمّة ... وما قصبات السبق إلا لمعبد

نسخه ممن مدح معبداً ، وذكره أبو الفرج ، فقال :

أجادُ طويس والسُّريجي بعده ... وما قصبات السبق إلا لمعبد ؟!

٥ — ثم يقسم السلخ فيجعله أحد عشر[2] نوعاً : « وهذا

---

(١) النسخة التي نلخص منها هذا الفصل هي التي نشرها الأستاذ الفاضل محمد محيي الدين عبد الحميد وعنى أحسن العناية بتحقيقها

(٢) المذكور في كل النسخ أنها اثنى عشر نوعاً إلا أن الموجود فيها بالفعل أحد عشر فقط

التقسيم أوجبته القسمة ، وإذا تأملته علمت أنه لم يبق شيء خارج عنه ! »

فالأول : أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه ، وهذا من أدق السرقات مذهباً ، وأحسنها صورة ، ولا يأتى إلا قليلاً كقول بعضهم :

لقد زادنى حباً لنفسى أننى ... بغيض إلى كل امرىء غير طائل

أخذه المتنبي فقال ببيته المشهور :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل

وقول أبي تمام :

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة ... رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

أخذه البحترى فقال :

ركبا القنا من بعد ما حملا القنا ... فى عسكر متحامل فى عسكر !

والثانى : أن يؤخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وهو صعب قليل الورود ، بل هو من أشكلها ، وأدقها ، وأغربها ، وأبعدها مذهباً ، كقول أبي تمام :

فتى ماتَ بين الضرب والطعن ميتة ... تقـــوم مقام النصر إذ فاته النصر

فقد سلخه من قول عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً . أو ينال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل مُنجح

ولا يخفى ما فى بيت أبي تمام من الجمال والعبقرية فى السلخ مع حسن السبك !

والثالث : أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وهو عند ابن الأثير من أقبح السرقات وأظهرها شناعة ، وقد افتضح بهذا النوع البحترى خاصة ، ووقع فيه أبو تمام كثيراً ، مثل قوله :

فلم أمدحك تفخيماً بشعرى ... ولـكنى مدحت بك المديحـا

فقد سلخه من قول حسان :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى ... لـكن مدحت مقالتى بمحمد

وقول ابن الرومى :

جرعته العيون فاقتص منهـــا ... يجوى فى القلوب داى النـدوب

فقد سلخه من قول أبي تمام :

أدميت باللحظات وجنتـه ... فاقتص ناظره من القلب !

وسرقة ابن الرومي ظاهرة مفضوحة لا شك فيها ويخفف من ورر السارق فى نظر ابن الأثير أن يجىء بلفظ أحلى ، أو معنى زائد فيه جمال . أما أن ينحط عن الأصل ، فهذه هى الشناعة التى ما مثلها شناعة عنده !

— والرابع أن يؤخذ المعنى فيعكس . وهو حسن يكاد يخرجه حسنه عن السرقة ، كقول أبي الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذة ... شغفاً بذكرك فليلمنى اللوم

عكسه المتنبي فقال :

أأحبه وأحب فيه ملامة ؟ ... إن الملامة فيه من أعدائه

— والخامس أخذ بعض المعنى ، كقول أبي تمام :

تُدعى عطاياه وفرا وهى إن شهرت ... كانت نخـاراً لمن يعفوه مؤتنفا

ما زلت منتظراً أعجوبة زمناً ... حتى رأيت سؤالاً يجتنى شرفا

أخذه من قول أمية بن أبي الصلت :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ... ببذل ، وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرىء بذل وجهـه ... إليك كما بعض السـؤال يشين

— والسادس هو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر ، كقول ولد مسلمة :

أذُلُّ الحياة ، وكره الممات ... وكُـلا أراه طعاما وبيلا

فإن لم يكن غير إحداهما ... فسيرا إلى الموت سيراً جميلاً

أخذه أبو تمـام فقال :

مثَّـل الموتَ بين عينيه والذلّ ... وكُـلاً رآه خطباً عظيما

ثم سارت به الحميَّـة قُدْمـا ... فأمات العِـدا ومات كريما !

فزاد فى المعنى : فأمات العدا ومات كريما

— والسابع أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من الأولى ، وهنا تتجلى عبقرية أبي تمام ... ولله من قال : من سرق معنى واسترقه ، فقد استحقه : وإن كنا لا نشجع السرقة !!

قال بعض الشعراء :

مُخَصَّرة الأوساط زانت عقودها ... بأحسن مما زيَّنتهـا عقودُها

أخذه أبو تمام فقال :

كأن عليهـا كل عقـد ملاحةً ... وحسناً وإن أضحت وأمست بلا عقـد

وسطا عليه البحترى فقال :

إذا أطفأ الياقوت إشراقُ وجهها
فإن عناقاً ما توخت عقودُها

وكلاهما رقق المعنى وزاده حسناً

— والثامن أن يؤخذ المعنى ويوجز فى سبكه ، وهو عند ابن الأثير من أحسن السرقات كقول أبى العتاهية :

وإنى لمعذور على فرط حبها لأن لها وجهاً يدل على عذرى

أوجز فيه أبو تمام فقال :

له وجه إذا أبصر ته ناجاك عن عذرى !

وقول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أوجز فيه تلميذه سلم الخاسر فقال

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور !

— والتاسع أن يكون المعنى عاماً فيجعله السارق خاصاً والعكس : كقول الأخطل .

(ونسبه الناشر إلى أبى الأسود) :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

خصصه أبو تمام فقال :

أألوم من بخلت يداه وأغتدى للبخل تربا ؟ ساء ذاك صنيعاً

وقال أبو تمام :

ولو حاردت شُولٌ عذرت لقاحها
ولكن مُنِعتُ الدَّرَّ والضَّرع حافل

عممه المتنبى فقال :

وما يؤلم الحرمان من كف حارم
كما يؤلم الحرمان من كف رازق

— والعاشر زيادة البيان مع المساواة فى المعنى ، أو ضرب مثال يوضح المعنى المسلوخ : كقول أبى تمام

قد قلصت شفتاه من حفيظته
نَخِيل من شدة التعبيس مبتسما

توسع فيه المتنبى فقال :

وجاهل مده فى جهله ضحكى حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزةً فلا تظنن أن الليث يبتسم

وهذا عند ابن الأثير من المبتدع لا من المسروق !

— والحادى عشر هو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ... وذلك أن يسلك الشاعران طريقاً واحدة تنتهى بهما عند جنتين مختلفتين ! ثم تتجلى فيهما عبقرية كل منهما ... وقد ضرب ابن الأثير لذلك مثلاً قصيدة لأبى تمام فى الرثاء بولدين وقصيدة المتنبى فى الرثاء بولد . ومطلع قصيدة أبى تمام :

ما زالت الأيام تخبر سائلا أن سوف تفجع مسهلاً أو عاقلا

وهى موجهة إلى عبد الله بن طاهر . ومطلع قصيدة المتنبى :

بنا منك فوق الرمل ما بك فى الرمل

وهذا الذى يضنى كذاك الذى يُبلى

وهى فى رثاء أبى الهيجاء بن سيف الدولة وقد توفى صغيراً ، ثم أقام بينهما موازنة يشوهها التلخيص ، فيحسن الرجوع إلى المثل السائر ليشهد القارئ مثلاً من أمثلة العبقرية العربية فى النقد الأدبى الدقيق (ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها) ، وإن ظهر فيها ابن الأثير متحزباً (بحق !) للمتنبى ، مع سلخ المتنبى كثيراً من معانى أبى تمام . ثم إنه فضل المتنبى على البحترى فى وصفهما الأسد فى قصيدتين متشابهتين تواردا على كثير من معانيهما ، ولعل هذا التوارد هو الضرب الثانى عشر من السلخ الذى لم يشر إليه ابن الأثير

ثم يعرف ابن الأثير المسخ فيذكر أنه « قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ... والعكس » على أن هذا العكس ليس فى رأينا مسخاً ، بل هو خلق وابتداع وتجميل يقتضيه الذوق الدقيق الصناع

قال أبو تمام :

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل

مسخ صورته المتنبى فقال :

يرى أن ما مابان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

والمسخ هنا هو فى تجاور ما وما المختلفتين معنى

* * *

وحسبنا الآن هذا القدر مما لخصناه من ابن الأثير ، وهو تلخيص نضعه بين يدى القارئ العَجِل ، ليكون نوراً يكشف له جوانب الظلام وجوانب العبقرية ، فيما سنقدمه له من سرقات أبى تمام التى أحصاها عليه الآمدى . ولو أن ابن الأثير تولى عنا الفصل بين أبى تمام وخصومه ، لأمدنا بذخيرة لا تنفد ، ويد لا تجحد ... رحم الله نقادنا الأفذاذ وجزاهم عنا خيراً

دريني خشبة